

الفصل الأول

شعر الوحدة الإسلامية
في عهد السلطان عبد الحميد

- السلطان عبد الحميد ودعوته إلى الوحدة
- شعر الوحدة في عهد السلطان عبد الحميد

السُّلْطَانُ عَبْدُ الْحَمِيدِ وَدَعْوَتُهُ إِلَى الْوَحْدَةِ

في عام ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م تولى السلطان عبد الحميد الخلافة والدولة الإسلامية على حالٍ تسر العدو وتحزن الصديق . ولعل أفضل من يحدثنا عن حالها السلطان عبد الحميد نفسه حيث يقول : « عندما توليت الحكم . كانت ديون الدولة تقرب من ثلاثمائة مليون ليرة وفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة . أي إلى العشر . وذلك بعد دفع ما تطلبته حربان كبيرتان وعدة تمردات داخلية » ^(١) . ويصف ظروف الدولة وقت توليه السلطة فيقول : « لقد تمرد البوسنة والهرسك . فهزموا الجيش العثماني وحاصروه في الجبل الأسود وأعلنت الصرب ^(٢) الحرب علينا وخاضتها بقوات منظمة . ثم انفجرت علينا الحرب الروسية ^(٣) الفظيعة ولم يكن ذلك من نتاج عهد سلطنتي . فقد توليت السلطنة بعد خلع سطانين متعاقبين . وبعد أزمة وزارية استمرت ثلاثة وتسعين يوماً . وفراغ في السلطنة . ومع ذلك كله . فالأمة كانت تزعم أنها وصلت إلى رشد » ^(٤) .

هذا ولقد أدرك السلطان عبد الحميد أهداف الأعداء وأطماعهم وتحمل المسؤولية بكل جرأة وشجاعة وكان أهلاً لها . فعمل على جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم لمقاومة الخطر الداهم . ونشر شعاره المعروف « يا مسلمي العالم اتحدوا » ودعا المسلمين إلى الالتفاف حول تركيا ؛ لأنها دولة الخلافة الإسلامية وأقوى تلك الشعوب وأقدرها على تحمل المسؤولية وقيادة المعركة ضد عدو المسلمين المشترك . فقال : « يجب تقوية روابطنا بالمسلمين في كل مكان وأن يقترب بعضنا من بعض أكثر وأكثر . فلا أمل لنا إلا بهذه الوحدة ومع أن وقتها لم يحن بعد ، لكنه سيأتي . وسيأتي اليوم الذي يتحد فيه جميع المؤمنين . وينهضون نهضة رجل واحد ، وفيه يحطمون رقبة الكفار » ^(٥) .

وأعلن أن سكة حديد الحجاز وسيلة من وسائل الوحدة الإسلامية فقال : « علينا أن نتم خط السكة الحديدية بين دمشق ومكة في أسرع وقت ... ففي هذا تقوية للرابطة بين

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٢ .

(٢) البوسنة والهرسك والجبل الأسود والصرب : هذه المناطق كانت تابعة لتركيا . والآن هي من ضمن الجمهوريات اليوغسلافية .

(٣) هذه الحرب قامت بين روسيا وتركيا سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م .

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٢٣ .

(٥) المصدر السابق : ص ٨ .

المسلمين كما فيه جعل هذه الرابطة - بعد تقويتها - صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الإنجليزية» ^(١) .

وقد استجاب المسلمون لندائه فانهالت تبرعاتهم من كافة أقطار الأرض حتى أن السلطات الهولندية اضطرت إلى اتخاذ إجراءات خاصة لمنع المسلمين في جزائر الهند الشرقية من إجاعة أنفسهم قبل إتمام الخط الحديدي ^(٢) . وتبرع أمير من الهند بمليون فرنك لإنشاء محطة في المدينة المنورة ^(٣) . ورصدت أثمان جلود الضحايا يوم عيد الأضحى للمشروع ^(٤) . ولقد تم إنجاز هذا المشروع بسرعة خارقة على الرغم من مناهضة أوروبا له . فقد كانت روسيا غير راضية عنه . وكان جلادستون وذررائيلي قد اتفقا على مهاجمة المشروع ^(٥) على الرغم من الخلافات الكثيرة الناشبة بينهما .

وقد تضمن برنامج السلطان عبد الحميد في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية أن قام بطبع آلاف النسخ من القرآن الكريم وأمر بتوزيعها في أنحاء البلاد ^(٦) . وعمد إلى ما هو أكبر من ذلك حيث عمل على حل الخلاف القديم بين فريق الأمة الإسلامية أهل السنة والشيعة والتوفيق بينهما وكان يقول : « إن الروايات الشريفة المتعلقة بعائشة أم المؤمنين سوف تخرس إلى الأبد ، وإن السم القديم يجب ألا يترك حتى يسري في جسد آسيا القوى ، وعلى السنين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوروبا في محاولتها قهر العالم » ^(٧) . وكان رحمه الله يصف تركيا بأنها نافذة الإسلام التي سيشع منها النور الجديد ^(٨) . ولقد أشار إلى إمكان تحالف النصارى ضد المسلمين فقال : « إننا نقف بمفردنا وإن في العالم لنا أعداء وليس لنا صديق . وإن في وسع الصليب أن يتحد في كل وقت . لكن الهلال يبقى دائماً بمفرده » ^(٩) . ولقد دعا إلى تقوية الروابط الإسلامية فقال : « يجب علينا أن نقوي الأواصر الإسلامية

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٨ .

(٢) عبد الحميد ظل الله على الأرض : ص ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٨ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٥) المصدر السابق : ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٦) المصدر السابق : ص ١٧٤ .

(٧) المصدر السابق : ص ١٧٥ .

(٨) المصدر السابق : ص ١٧٥ .

(٩) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦٤ .

بحيث يتساند مسلمو الصين والهند وأفريقيا مع باقي المسلمين في شتى أنحاء الأرض»^(١). وأكد أن الوحدة هي التي تحقق القوة والرهبة فقال: «يجب علينا أن نقوي صلاتنا بالبلدان الإسلامية، وأن يكون التقارب بيننا أفضل مما هو عليه الآن، فإنه لا أمل لنا في المستقبل إلا بالوحدة، وإن بقاء الوحدة الإسلامية يعني بقاء إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا تحت نفوذنا ذلك لأن كلمة واحدة من الخليفة تكفي لإعلان الجهاد في البلدان الإسلامية الواقعة تحت سيطرة هذه الدول ووقوع الكارثة بالنصارى. ولا ريب في أن اليوم الذي يقوم فيه المؤمنون قومة رجل واحد ويحطمون أغلالهم آتٍ لا محالة»^(٢).

ولقد كان السلطان عبد الحميد شديد الثقة بالرابطة الإسلامية التي يجب أن تعلق على الرابطة العثمانية، وبالإسلام الذي هو مصدر كل أخوة ووحدة فقال: «إن الإمبراطورية العثمانية دولة ضمت عدداً كبيراً من الأمم والشعوب فتكونت من الأتراك والعرب والأكراد والأرناؤوط والبلغار واليونان... ولقد جمعتهم الرابطة الإيمانية، وجعلتهم أفراداً في أسرة واحدة فعلى أن نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين، وأن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة الإمبراطور العثماني. فإن الإسلام هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة»^(٣). ولقد أبدى السلطان عبد الحميد أسفه البالغ لظهور القوميات والعصبيات التي يغذيها أعداء الإسلام والتي تفرق ولا تجمع. وتهدم ولا تبني فقال: «علينا أن نعترف بأن الإنجليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يثثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا، فتحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وظهرت في سورية بوادر حركة مماثلة»^(٤).

ولقد عمل السلطان عبد الحميد على مد يد العون للمسلمين في كل مكان وأعلن أنه يسند مطالبهم العادلة، فعمل قناصلته وسفراؤه على تنفيذ خطته. من ذلك أن الحكومة الهولندية شكت له القنصل التركي في جاوا وقد كانت مستعمرة لها فقال في مذكراته عن هذا الحادث: «لقد طالب القنصل التركي في جاوا»^(٥) بأن يُرفع الأذى عن المسلمين في تلك البلاد وأن يُعطوا حقوقاً تساوي الحقوق الممنوحة للأوروبيين. ولم يجانب الصواب مرةً أو يخرج عن نطاق عمله الرسمي. فإن القسم الأعظم من النشاط التجاري في جاوا بيد

(١) السلطان عبد الحميد العثماني: مذكراتي السياسية، ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٥.

(٣) المصدر السابق: ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٤) المصدر السابق: ص ١٧٧.

(٥) جاوا: جزيرة أندونيسية.

العرب وهم يدفعون نسباً عالية من الضرائب تزيد على ما يدفعه الأوروبيون أضعافاً مضاعفة . ومن الطبيعي أن ينالوا حقوقاً تساوي الحقوق التي يتمتع بها الأوروبيون على الأقل . ومن واجبا أن نسعى إلى ذلك . إننا نساند بكل قوة مطالب إخواننا المسلمين العادلة في جاوا » ^(١) . وكان يرحب بالوفود الإسلامية التي تزور دار الخلافة . ويرى فيها تقوية للروابط الدينية حيث قال : « علمت أن وفداً من العرب المسلمين من أعيان باتافيا Batavia يريد مقابلتي لتقديم احترامه وولائه بصفتي خليفة المسلمين فعلى الرحب والسعة . إن هذه الزيارة بادرة طيبة ستثبت للكفار مدى قوة الأواصر بين المسلمين » ^(٢) . ولقد تأثر المسلمون بدعوته واستجابوا لندائه فتقاطرت وفودهم على الأستانة . وخاصة بعد أن أدركوا أطماع الدول فيهم . وتعرضوا للمذابح الكثيرة .

ففي سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م وقعت في البلقان عدة مذابح قتل فيها الكثير من المسلمين لتجردهم من السلاح وعدم قدرتهم على رد القوة بمثلها ^(٣) . وقد هب السلطان لنجدتهم وأبرق لقبصر روسيا يستنكر تلك المجازر ويدعوه إلى الرأفة بهم . وقد ورد في إحدى البرقيات ما يلي :

« إن الأخبار التي بلغت دولتي عن المصائب والمحن التي نزلت بالمسلمين القاطنين في البلغار . وفي ولاية (الروم إيلي الشرقية) من شأنها أن تحرك رحمتكم . وتحملكم على إنكار هذا العدوان الذي أوقعه البلغاريون بألوف من النفوس فلم يتركوا شيئاً من الفظائع إلا وفعلوه ، فغصبوا الأموال . وهتكوا الأعراض ، وقتلوا النفوس ، وجعلوا ذلك ديدنهم في كل يوم ، فأصبح المهاجرون المساكين الذين كابدوا هذه الكوارث في أسوأ حال . إننا نعتد على على إنسانيتكم . ونرجو من هممتكم أن تعطوا الأوامر لصيانة المسلمين . والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم » ^(٤) .

ويقول العالم الأمريكي ستودارد عن السلطان عبد الحميد ودعوته إلى الوحدة : « لقد استطاع السلطان عبد الحميد أن ينشر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية الكبرى في أوسع الآفاق ، وأن يحيي الشعور بذلك لدى جميع الشعوب الإسلامية ، وأن ييث فيها النشاط لتحقيقها ، ولم يكن يعتمد في ذلك على خلافته للمسلمين فحسب . وإنما كان يستعين على

(١) السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية . ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٣ .

(٣) تاريخ الدولة العلية : ص ٣٣٩ .

(٤) كثر الرغائب في منتخبات الجواب : جزء ٧ . ص ١ .

دعيته بما كانت ترتكبه الدول الغربية من ضروب العداء للإسلام والمقت للمسلمين . والتحامل عليهم » ^(١) .

هذا . ولقد عمل أعداء الإسلام على تمزيق الوحدة الإسلامية ، ولا سيما بعد أن رأوا تعاطف المسلمين مع السلطان عبد الحميد واستجابتهم لندائه .

ولا أدل على ذلك من كلمة القسيس سيمون التي يقول فيها : « إن الوحدة تجمع آمال الشعوب السمر . وتساعدتهم على التخلص من السيطرة الأوروبية » ^(٢) .

ولقد جند الأوروبيون المبشرين لهذا الغرض وقالوا : « يجب أن نحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية : حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين » ^(٣) .

و : « كان الإفرنسيون يخافون من المساعي لتحقيق الوحدة الإسلامية » ^(٤) ثم إن القوى العاملة عملت على إثارة الفتنة بين العرب والأتراك ، وقد استغلت مساوئ بعض الولاة العثمانيين فأوحت للعرب أن الخلافة يجب أن تكون في أيديهم وأن يكون مركزها مكة ، حيث يقول المستر بلانت أحد الكتاب الإنجليز : « إن مركز الخلافة يجب أن يكون مكة ، وإن الخليفة في المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً لا ملكاً دنيوياً » ^(٥) .

ثم عملت تلك القوى على تنشيط الحركة القومية في البلاد العربية واعتمدت على النصارى في الدعوة لها .

ذكر جورج أنطونيوس في كتاب يقظة العرب ^(٦) أن الرواد الأوائل للحركة القومية في البلاد العربية كانوا نصارى . وأنهم كانوا على صلة بالماسونية الأوروبية وفروعها في المشرق العربي . وكانوا يوزعون المنشورات التي تندد بالأتراك وتدعو العرب إلى الثورة ضدهم . وكانوا يريدون إضعاف المسلمين وبعثرة قواهم ليتمكنوا من القضاء عليهم واحتلال بلادهم .

وكان للإنجليز اليد الطولى في تشجيع الحركات الانفصالية داخل الدولة العثمانية ، وإضعاف العصبة الدينية بين المسلمين وذلك لتقطع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يتمكنوا من مواجهتهم واحداً واحداً . فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبانيون أحفاد الفينيقيين . والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين ، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد وأحق الناس

(١) حاضرم العالم الإسلامي : جزء ١ - ص ٣١٠ .

(٢) تبشير والاستعمار : ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣٧ .

(٤) المصدر السابق : ص ٣٧ .

(٥) لمساءلة الشرقية : ص ٢١ .

(٦) يقظة العرب : ص ١٤٩ وما بعدها .

بالقيام على خلافة الإسلام^(١).

ولقد كان السلطان عبد الحميد على حق حين قال : « إن أكثر ما يجب على المرء أن يحذره من الدول الكبرى هو إنجلترا ، فالإنجليز قوم لا إلَّ لهم ولا دِمة »^(٢).

ولقد أدرك الزعيم المصري مصطفى كامل أهداف الإنجليز وأطماعهم . فأخذ يحذر المصريين منهم فقال : « إن جلالة السلطان صاحب الصوت الأول بين دول أوروبا في مسألة مصر ، ولا بد له من أن يأخذ بالتأثر في مسألة بلادكم التي خدعه الإنجليز فيها أكبر خداع فيجب عليكم أن تكونوا على تمام الصفاء والوفاء في علاقتكم مع جلالة السلطان »^(٣).

وحذر المسلمين جميعهم من الإنجليز فقال : « واجب المسلمين أن يلتفتوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة وأن يعزوها بالأموال والأرواح . ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة »^(٤).

وقال : « إن انكلترا هي أشد الدول كراهة للدولة العلية وللإسلام وأكثرها رغبة في هدم السلطنة العثمانية . وتقويض أركان الخلافة الإسلامية ... إنها العدو الحقيقية الخداعة التي تلبس ثياب الصداقة طوراً وثياب العداوة طوراً آخر عاملة في الحاليتين على الإضرار بالدولة العلية وعلى إضعاف نفوذ المسلمين ... إن انكلترا كانت تريد تقسيم الدولة العلية وإنها لبلوغ هذا الغرض طلبت من الدول الأوروبية دخول البسفور بالقوة وخلع جلالة السلطان الأعظم قهراً . وقد فاه بهذا التصريح الخطير المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا »^(٥).

ولقد أدركت القوى العالمية مقام السلطان عبد الحميد وفطنت لما يضطرم في نفسه من مشاعر وما يملأ أفواده من أفكار وأحاسيس فأبغضته وناصبته العدا .

يقول مصطفى كامل : « والذي جعل الإنجليز يبغضون جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية »^(٦).

ولما تحدى السلطان عبد الحميد القوى العالمية ولم يتساهل في تحقيق أطماعها عملت على عزله .

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ١ . ص ١١١ .

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية . ص ١١٢ .

(٣) مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ . ص ٢٤٤ .

(٤) المسألة الشرقية : ص ٢٣ .

(٥) المصدر السابق : ص ٣٤٦ .

(٦) المصدر السابق : ص ٢٠ .

من ذلك أن وفداً يهودياً زاره . وعرض عليه السماح لليهود باستيطان فلسطين مقابل مبالغ كبيرة من المال هو في أمس الحاجة إليها . فكان رده عليهم : « إن أرض وطننا لا تباع بالدرهم ، وإن بلادنا التي حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا لا يمكن أن نفرط بشبر فيها دون أن نبذل أكثر مما بذلنا من دماء في سبيلها ... » (١) .

ثم قال : « بلغوا هرتزل . ألا يبذل بعد اليوم أي محاولة لبلوغ هذا الأمر - أمر دخول فلسطين والاستيطان بها - فإني لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى غير أهلها . فالبلاد ليست ملكي وإنما هي ملك لشعبي روى تراها بدمائه فليحفظ اليهود بملايينهم من الذهب » (٢) .

وأصدر أمراً (٣) بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين ، حين وقف على أطماعهم وأهدافهم وأنهم يريدون أن يملكوا فلسطين ويتخذوها وطناً لهم وليسوا طلاب رزق ولا دعاة سلام ، ولقد قال عنهم في مذكراته : « لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين ، إنهم يريدون أموراً أخرى ، كتشكيل حكومة وانتخاب ممثلين . إنني أدرك أطماعهم جيداً ، لكن اليهود يخططون إذا ظنوا أنني سأقبل بمحاولاتهم فأننا إذا كنت أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانهم وأطماعهم في فلسطين » (٤) .

وبعد أن أدرك اليهود ثبات السلطان عبد الحميد على رأيه ورفضه أطماعهم تعاونوا مع خصومه على إسقاطه وخلعه .

يقول عبد الله التل في كتابه الأفعى اليهودية في معازل الإسلام : « حينما أدرك اليهود ثبات السلطان عبد الحميد في وجه أطماعهم ، زادوا من تأمرهم لإسقاطه . واستعانوا بالقوى الشريرة التي نذرت نفسها لتمزيق ديار الإسلام وأهمها الماسونية والدونمة والجمعيات السرية (الاتحاد والترقي) . وحركة القومية العربية والدعوة الخبيثة للقومية التركية (الطورانية) . ولعب يهود الدونمة دوراً رئيساً في إشعال نار الفتنة ضد السلطان » (٥) .

ولقد عملت القوى العالمية المعادية للإسلام على طمس محاسن السلطان عبد الحميد وتشويه سمعته ولم تترك عيباً من العيوب إلا ألصقته به وخاصة اليهودية العالمية . ولا عجب

(١) الأفعى اليهودية في معازل الإسلام : ص ٨٤ . ولاحظ مصدره .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ١٩٢ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٩٢ .

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية . ص ٣٤ - ٣٥ .

(٥) الأفعى اليهودية في معازل الإسلام : ص ٨٤ - ٨٥ .

« فدعاية اليهود ماهرة في قلب الحقائق وإبراز المساوئ وطمس المحاسن فنجحت تلك الدعاية في أوروبا وفي العالم بأسره ، فلقد غدا من الأمور المسلم بها أن المسلمين الأتراك متوحشون قساة . يرتعون في الفساد والانحلال . وحين أبرزت قسوة الأتراك طمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس ونجحت الدعاية اليهودية في تحريك المطامع الاستعمارية ودفعها لابتلاع أجزاء غنية من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون سلطان تركيا » ^(١)

وفي مذكرات السلطان عبد الحميد التي نشرت مؤخراً رد على أولئك الذين عابوه وشانوه . وجعلوه سلطاناً متوحشاً عدوًّا للعلم والعقل حيث يقول : « لو كنت عدوًّا للعقل والعلم فهل كنت أفتح جامعة ؟ وهل كنت أنشئ المدارس التي تعد للدولة الإنسان المثقف ؟ ولو كنت عدوًّا للعقل والعلم فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال دار المعلمات ؟ ولو كنت خصماً للعقل والعلم حقيقة : أكنت أجعل جامعاتنا في مستوى الجامعات الأوروبية ؟ وأفرض على طلابها دروس الحقوق ؟ وعندما أمرت بتدريس الفلسفة - تمرد الطلاب جميعهم وقالوا : إننا نريد أن نجعلهم كفاراً ولكني كنت أعرف أن الكفر ليس في العلم ولكنه في الجهل . وتمسكت بتدريس الفلسفة فدرسوها مع تعديل في الاسم . حيث أطلقنا عليها اسم « الحكمة » كما أمرت بتدريس هذه الدروس في الجامعة باسم (الفيزيكا) . » ^(٢)

وقال : (... هل يمكن أن يكون عدوًّا للعلم والعقل سلطان بذل كل ما في وسعه قرابة ثلاثين عاماً لكي يرى في كل قرية مسجداً وبجانب المسجد مدرسة ؟) ^(٣) .

وحين قالوا عنه إنه سلطان أحمر يمنع نشر الأفكار ويكبت الحريات رد عليهم فقال : « بعض الشباب الذين كانوا يذهبون إلى أوروبا ... كانوا يرون السيدات يراقصن الرجال وكان هؤلاء الشباب يعجبهم الأوروبيون وهم يشربون الخمر فلما عادوا إلى بلادهم صاروا يدعون إلى ذلك كله ويعملون به مدعين أن قمة الحضارة الأوروبية تتمثل في مثل هذه الأمور . ولقد كنت أقول إن هذا خطأ فكانوا يتهمون تفكيري بأنه كالعنكبوت .

وهناك ضرب آخر من الشبان الذين أرسلتهم إلى أوروبا درسوا الثورة الفرنسية وتعلموها ووضعوها نصب أعينهم دون أن يدرسوا أسباب انفجار هذه الثورة . ولما عادوا إلى البلاد جعلوا حب الوطن هو الدعوة لإثارة الشعب والعمل على تمرده ولم أكن لأسمع بهذا ... » ^(٤) .

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٧٧ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٧٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٧٧ .

(٤) المصدر السابق : ص ٨٩ .

ولقد أنصف الملك عبد الله بن الحسين - رحمه الله - السلطان عبد الحميد وذلك حين قال عنه في مذكراته : « زعم الناس أن عبد الحميد كان ظالماً ، لقد كذب الناس . والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر المتحوط . ولقد عُرِفَ بعد أن ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم إعدام في محكوم أبداً . إلا مرة واحدة . والبقية كانوا يتركون في السجون حتى يدركهم الموت . وأما الذين ينفون من بلادهم إلى اسطنبول أو من اسطنبول إلى الخارج . فهم أولئك الذين نَمَى إليهم أنهم مخالفون له خارجون على سلطانه ، فيخرجهم إلى مكان لا يُعرفون فيه فيبقى دولته بذلك من التدمير والفتن . ولئن أحصى الناس ما وقع بعده من صلب وتشريد . وأحكام عرقية وصولات ^(١) في الشام واليمن من الحكومات الاتحادية . لَعَلِمَ أن ظلم عبد الحميد بالنسبة إلى أفعالهم كان دلاً محضاً ^(٢) ... وإنه ليصح القول بأن السلطان عبد الحميد . كان آخر سلاطين المسلمين علواً ورفعة . وأشبه ما حصل بعد خلعه للمسلمين بما حصل عندما وثب أهل الكوفة وأهل مصر على أمير المؤمنين عثمان بن عفان . فإن كان عثمان هو لباب الأول الذي كسر بين الفتنة والناس ، فإن عبد الحميد كان الباب الثاني الذي كسر في العصر الأخير بين الفتنة والناس أيضاً ، ولله تصريح الأمور ، وله الدوام والعزة » ^(٣) .

وقد ظل أعداء السلطان عبد الحميد يُجسِّمون خطيئاته . ويبالغون في سقطاته ويشيعون عنه الأباطيل حتى تحقق لهم ما تمنوا ونجحت خططهم في عزله وتنصيب محمد الخامس بدلاً منه ليكون سلطاناً رمزياً . وقد وقع ذلك على أيدي زعماء جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م .

ومما يندى له الجبين أن يترأس أحد اليهود الوفد الذي قدَّم للسلطان وثيقة الخلع وأن يكون هذا اليهودي قراصو رئيس الجالية اليهودية في سالونيك ^(٤) وهو الذي صده السلطان مع هرتزل زعيم الحركة الصهيونية حين طلب منه السماح لليهود باستيطان فلسطين .

بل إن جميع أعضاء الوفد ليسوا أتراكاً أصليين وإنما كانوا مواطنين أتراكاً من نسل أرمني . ويوناني ويهودي ^(٥) .

وكان قرار الخلع قد عرض على شيخ الإسلام في تركيا لتصديقه حتى يأخذ صفته

(١) نصولة : البطوة في الحرب ونحوها .

(٢) ندل : الفئج والشكل .

(٣) مذكرات الملك عبد الله : ص ٢٩ .

(٤) سالونيك : ميناء يقع على بحر إيجه .

(٥) عبد الحميد ظل الله على الأرض : ص ٢٠١ .

القانونية ، وقد صدق الشيخ عليه وهو محاط بحراب البنادق ^(١) ؟
وقد قال السلطان للوفد بعد أن أبلغوه بالقرار : « ذلك تقدير العزيز العليم » ولكن لماذا
جئتم بهذا اليهودي - ويقصد قراصو - إلى مقام الخلافة ^(٢) ؟ !

* * *

(١) عبد الحميد ظل الله على الأرض : ص ٢٠٠ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية : ص ٢١٠ .

شعر الوحدة في عهد السلطان عبد الحميد

تحدثنا عن دعوة السلطان عبد الحميد إلى الوحدة الإسلامية واستجابة المسلمين لندائه وموقف الدول الأجنبية منه ومن دعوته تلك ، والآن نقف مع الشعر لنرى مدى إسهامه في ذلك .

لقد أدى الشعر رسالته وأسهم الشعراء في الدعوة إلى وحدة العالم الإسلامي ، فأكبروا السلطان عبد الحميد وأثنوا على دعوته ، وحضوا المسلمين على الوقوف معه وتأييده ، وأشادوا بانتصاراته . وغدوا يرون فيه رمزاً للوحدة الإسلامية .

يقول الأمير شكيب أرسلان في مقدمة ديوانه : « لي عدة قصائد سلطانية كنت أمدح بها لسلطان عبد الحميد ، ولم أكن أقدمها للحضرة السلطانية ، وإنما كنت أنشرها في الجرائد تعظيماً لمقام الخلافة ، وتأييداً لوحدة الأمة » ^(١) .

وكان الأمير شكيب يرى أن حُبَّ الخليفة فرض ومدحه واجب حيث يقول مغالياً في ذلك ^(٢) :

فحبك ذا شرعي وعرفي ومذهبي ومدحك ذا فرضي ووترى وواجبي

وهو يقول في معرض حديثه عن مدائح شوقي :

(عاب بعضهم على شوقي وربما عابونا على مدح الامراء ومدح السلطان ... والحقيقة أن شوقي عندما يرسل كلماته الخالدة في مديح السلطان الخليفة فإنما يقدر مقام الخلافة العزيز على المسلمين الناظم لشملمهم القائم في وجه عدوهم . فليس في هذا المذهب ما يدل على سلوك طريق التزلف كما يظن من لا يدقق في أسرار الأمور ، ولكنها الروح القومية والتزعة الإسلامية ، والنصح عن حوض الخلافة ، والذود عن بنيان السلطنة ، وهذا أشبه شيء بالدعاء الذي يقال في الجوامع نهار الجمعة استترالاً من عند الله لنصر سلاطين الزمان الحافظين لكيان الأمة في الداخل والخارج . وليس هذا الدعاء خاصاً بأشخاصهم . وإنما هو للمقام الذي يتبوءونه) ^(٣) .

(١) ديوان الأمير شكيب أرسلان : ص ٩٠ .

(٢) لمصدر السابق : ص ٩٢ .

(٣) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٥ .

ثم يقول : « إن استيلاء الأجانب على أكثر بلاد الإسلام واستئثارهم بالأمر والنهي ... حمل كثيراً من مفكري الإسلام على أن يتقربوا من ملوكهم وأمراءهم الذين يرون فيهم رمز السلطان القديم وبقية الاستقلال السابق . وأن يشيدوا بذكرهم ، ويهتفوا بمبايعتهم ... وبالجمله فهذا ضرب من ضروب الدفاع عن الوطن ولون من ألوان الاحتجاج على احتلال الغريب للبلاد ^(١) .

ويقول الشاعر أحمد الكاشف في مقدمة ديوانه : « لقد كاتبت الوزراء والعلماء وانتفعت بودهم ، وآخيت صفوة شعراء العصر ، وطارحتهم الشعر . وتناجينا على بعد المزار واتفقنا على تأييد الخلافة العثمانية . والتوفيق بين أمراء الإسلام ومحاربة البدع والأوهام » ^(٢) . هذا ولقد كان معظم الشعراء الذين عاشوا تلك الفترة متعاطفين مع الدولة العثمانية على الرغم من اختلاف بيناتهم وتباين نزعاتهم ، فكانوا يمجدون انتصارات تركيا الحربية ، ويهاجمون الخارجين عليها . ويدعون إلى وحدة العالم الإسلامي في ظل راية الخلافة العثمانية . وكانوا يرون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية وأن الجامع لكلمة المسلمين الموحد لصفوفهم إنما هو الخليفة . وأن حروب الخليفة العثماني ليست إلا دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ^(٣) .

وكان هؤلاء الشعراء يغتنمون الفرص للتعبير عن ولاءهم لدولة الخلافة الإسلامية والخليفة العثماني . فحين انتصرت الجيوش العثمانية على اليونان سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٧ م طرب الشعراء لذلك النصر وهللوا وكبروا . وكان أحمد شوقي - رحمه الله - في طليعتهم . فنظم ملحمة الحماسية الطويلة التي افتتحها بتمجيد السلطان عبد الحميد فقال ^(٤) :

سيفك يعلو الحق والحق أغلب ويُنصر دينُ الله أيان تضربُ

ثم أشاد بالأتراك الذين رفعوا لواء الإسلام . وأعلوا مقام المسلمين . وزادوهم عزاً ومنعة . وصانوا الخلافة فقال :

وزيد حمى الإسلام عزاً ومنعة ورُد جماحُ العصر فالعصر هُيبُ ^(٥)
رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نُصَوَّبُ
ومن كان منسوباً إلى دولة القنا فليس إلى شيء سوى العز يُنسبُ

(١) شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) ديوان أحمد الكاشف : ١ / ن

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جزء ١ . ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) الشوقيات : جزء ١ . ص ٣٠ .

(٥) يقال جَمَعَ الفرس جَمْعاً وجَمُوحاً وجَمَاحاً : عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه .

والشاعر يؤكد أن آلام المسلمين واحدة ، ودينهم واحد ، ومذهبهم واحد فيقول :
يؤلف إبلام الحوادث بيننا ويجمعنا في الله دين ومذهب

ثم يختم القصيدة مخاطباً السلطان عبد الحميد بقوله :
فلا زلت كهف الدين والهادي الذي إلى الله بالزلفى له نتقرب

والشاعر يفرح بذلك النصر ويحمد الله عليه . ويشيد بمساعي السلطان عبد الحميد في جمع الكلمة . وتوحيد الصف فيقول (١) :

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين (٢)
لقينا في عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا
جمعت لنا الممالك والشعوبا وكانت في سياستها ضروبا

ثم يتهم الشاعر بالأعداء ويشيد بالخليفة الذي لا يغفل عن رعاية شؤون المسلمين فيقول :

فلما هبَّ (جورجيه) (٣) هبواً تلفت لا يصيب له معينا
رأى كيف السبيل إلى « كريد » وكيف عواقب الطيش المزيد
وكيف تنام يا عبد الحميد وتغفل عن دماء العالمينا

وبعد أن وصف الشاعر المعارك ختم قصيدته بمخاطبة بيت الخلافة فقال :
بني عثمان : إنا قد قدرنا فتوحكم الكبار وقد شكرنا
سألنا الله نصراً فانتصرنا بكم ، والله خير الناصرينا

وفي هذه الحرب ارتفع صوت الشاعر الليبي مصطفى بن زكري بملحمة تريد على مائة

(١) الشوقيات : جزء ١ . ص ٣٥٢ .

(٢) الملاحظ أن الشاعر كثيراً ما يستعمل بعض العبارات التي يحسن بالمسلم ألا يستعملها .

(٣) ملك اليونان حينذاك .

بيت صوّر فيها المعارك . وندد باليونانيين وشمّت بهم فقال :

يا سعد سر مترنماً	ببشائر النصر المبين ^(١)
ودع المطيّة طاوياً	بحر السفين على السفين
واعبر عُبَاب الدردنيـ	ل ، وحيّ حيّ الأكرمين
واعطف على (دار الخلا	فة) باليسار . وباليمين
لا زال رونقها يـدوّ	لتنا يسرّ الناظرين

ثم دعا الشاعر إلى الهتاف باسم الخليفة لأن جيوشه نصرت الإسلام . وردت عدوان اليونان على بلاد المسلمين فقال :

وإذا مررت (يَلْدِز)	وسعدت بالملك المكين ^(٢)
تاج الخلافة بهجة الد	نيا . وعز المسلمين
عبد الحميد وناصر الد	ين الحنفي المبين
فاهتف هنالك بالذي	تدري وتعلم من حنين
وقل : السلام عليك أـ	فأ يا أمير المؤمنين
أَيَّدْتَ بالفتح المبيـ	ن دعائم الدين المتين
ونصرت دين المصطفى	خير البرية أجمعين

ولقد تحدث الشاعر عن تعصب اليونانيين وسفكهم للدماء التي لا ذنب لها إلا الإسلام ، وأشار إلى بغيهم وقتلهم النساء والأطفال فقال :

سفكوا دماء ما لها	ذنب سوى الإسلام دين
وجنوا أمورا كل قلـ	ب من فظائعها حزين
ومن السفاهة والجفـا	قتل الحلائل . والبنين

(١) ديوان مصطفى بن زكري : ص ١٨٣ - ١٩٤ .

(٢) يلدز : قصر الخلافة بالقسطنطينية .

ثم سخر من ادعائهم الحكمة وقد ارتكبوا ما ارتكبوا فقال :
 أو ما ادعيتكم حكمة القُدِّ دَمًا . وعلم الأولين ؟
 فمن السياسة ما ارتكب تم . أم من الجهل المبين ؟

ثم يصور الشاعر ميدان المعركة على سفح جبل « ملونة » الذي غطته أجساد الجرحى .
 وحش القتلى . وقد سقطت عليه قذائف المدافع سقوط القدر الذي لا يتخلف . فقال :

ملئت جبال (ملونة) بمدافع ومدافعين
 تركت بني اليونان تهتف بالنواح وبالأنسين
 نطقت بألفاظ مقرر رة لها معنى متين
 لا تقبل التحريف عن جسم البغاة الماردين
 أم غركم حلم « الحميد » ورفقه بالعالمين ؟
 أم تجهلون لقاء قـو م في الحروب مجربين ؟
 أم تحسبون الصرب والـ بلغار تنجد أو تعين ؟

وكان الشاعر المدنيُّ عبدُ الجليل برادة نزيلَ الدارِ العلية^(١) إبان هذه الحرب فأنشأ
 قصيدة حاكى بها رأيه أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي التي مطلعها :
 كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض مأوها عذر

وقد افتخر المدني في هذه القصيدة بالجيش الغازية وأظهر الشامة باليونان فقال :^(٢)
 كذا فليكن قهر الأعادي وهكذا تُخاض المنايا والحديد لها جسر
 حديث عن اليونان يضحك باكياً ويطرب محزوناً ويلهو به غر
 صبرنا وكم عنهم عفونا فلم يفد وعن مثلهم لا يحسن العفو والصبر

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : جزء ٢ . ص ٧٨١ .

(٢) المصدر السابق : جزء ٢ . ص ٧٨٢ .

ثم مدح السلطان عبد الحميد فقال :

فقام أمير المؤمنين لردعهم بيأس شديد لا يقوم له الصخر
فأحيا مواتاً للجهاد تقادمت عليه دهور لا يشاد له ذكر

وهنا السيد توفيق البكري السلطان عبد الحميد بانتصار الجيوش العثمانية بقصيدة تفيض بالروح الإسلامية استهلها بقوله : (١)

أما ويمين الله حلقة مقسم لقد قمت بالإسلام عن كل مسلم
فلولاك بعد الله أمت دياره بأيدي الأعادي مثل نهب مقسم
لقد سرّ هذا النصر قبرا بطييسة وبيتاً ثوى عند الحطيم وزمزم

ثم طفق الشاعر ينعت السلطان عبد الحميد بجميل الصفات فقال :

إمام له في آل عثمان لحمة تبجح منها في الذرى والمقدم
يسوس الرعايا والبلاد بحكمة أقامت لدى نهج من الحق أقوم
ويقطع أقران الأمور بفصل من الرأي يحكي منه ضربة مخذم
رمى الروم لما أن عتوا بكتيبة تميل بأعطاف الوشيج المقوم

ولم تكن هذه الحماسة عند الشعراء وحدهم . بل كانت عند المسلمين جميعهم . من ذلك أنه بعد أن قامت الحرب اهتز المسلمون لها وماجوا ، وتألفت في مصر لجان لجمع التبرعات . ووضعت الصناديق في المساجد وفي المحلات التجارية ليضع فيها المتبرعون ما تجود به نفوسهم . وتقدم بعض ضباط الجيش المصري المتقاعدين ملتجئين قبول تطوعهم في الجيش العثماني .

وبعد أن وردت الأنباء بانتصار الجيوش العثمانية عمّت الفرحة ورفعت الأعلام العثمانية ونصبت الزينات ، وأقيمت الاحتفالات (٢) .

وذكر أحمد شفيق باشا أن الانجليز ساءهم هذا الحماس لتركيا . فوجهوا صحفهم

(١) حلية البشر في تاريخ القرون الثالث عشر : جزء ١ . ص ٤٣٠ .

(٢) مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ . ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

والصحف الموالية لهم إلى القول بأن الاحتفالات التي أقيمت في مصر إنما هي بإيعاز من الحكومة المصرية ، والحقيقة التي يمكن تقريرها أن أحداً من رجال الدولة لم يتدخل في أمر هذه الاحتفالات بالصورة التي زعمتها هذه الصحف ^(١) .

وكان الشعراء حين يمدحون السلطان عبد الحميد يشيرون إلى الروابط الدينية ؛ فهو خليفة المسلمين الذي أنيطت به رعايتهم . وألقيت على عاتقه حمايتهم . وهو الجامع لكلمتهم ، الموحد لصفهم . فحينما تعرّض لقذيفة أقيت عليه وكتب الله له السلامة . نظم شوقي قصيدة هنأه فيها . وتغنّى بالرابطة الإسلامية ، ونال من خصومها فقال : ^(٢)

هنيئاً أمير المؤمنين فأنمسا	نجاتك للدين الحنيف نجاة
هنيئاً لظه والكتاب وأمة	بقاؤك إبقاء لها وحياة
فلولاك ملك المسلمين مضيع	ولولاك شمل المسلمين شتات
نجت أمة لما نجوت ودوركت	بلاد وطالت للسريير حياة

ومدح شوقي السلطان عبد الحميد فأشار إلى اجتماع الشمل به فقال : ^(٣)

أمة الترك والعراق وأهلوا	ه ولبنان والربا والخيما
عالم لم يكن لينظم لولا	أنك السلم وسطه والوئاما
أيها النافرون عودوا إلينا	ولجوا الباب إنه الإسلام

ولقد اغتنم الشاعر هذه المناسبة فدعا الخليفة إلى نصره مصر التي هي جزء من أجزاء الخلافة الإسلامية وهو الخليفة الذي أنيطت بعنقه رعاية شئونها وحمايتها من المعتدين فقال :

نستميح الإمام نصراً لمصر	مثلما ينصر الحسام الحسام
فلمصر وأنت بالحب أدرى	بك يا حامي الحمى استعصام
وإلى السيد الخليفة نشكو	جور دهر أحراره ظلام
وآرّع مصرأ ولم تزل خير راع	فلها بالذي أرتك زمام

(١) - مذكراتي في نصف قرن : جزء ٢ . ص ٢٤٣ .

(٢) - شوقيات : جزء ١ . ص ٨٨ .

(٣) - لمصدر السابق : جزء ١ . ص ٢٩٧ .

وكان الشاعر الليبي سليمان الباروني يعتقد كما يعتقد الكثير من أبناء ليبيا أن الدولة العثمانية سند قوي لحفظ بلادهم من أنياب المتنمرين لها كفرنسا وإيطاليا ^(١) . ولذا نراه على الرغم من غضب الخليفة العثماني عليه لوشاية واش - كما يقول - ^(٢) يمدح الخليفة العثماني . ويصفه بأنه ملجأ المسلمين وملاذهم فيقول : ^(٣)

عبد الحميد لأنت حقاً ملجأً للدين والدنيا على رغم البليد ^(٤)
عبد الحميد قلوبنا ملئت فقل قوموا نقم وإلّها عنا شهيد

وتوجه الشاعر إلى الله في قصيدة أخرى وسأله أن ينصر جند الخليفة فقال : ^(٥)
غازي العدا عبد الحميد المرتضى من سيفه لذوي الخيانة نار
انصر إلهي جنده نصرأ عزيز زراً لا يشوب زلاله الأكدار

وفي قصيدة ثالثة حض الشاعر الخليفة على أن يهب لنصرة هذا الدين والذود عنه . فعليه المعول في ذلك فقال : ^(٦)

من ذا لدينك يا محمد بعد ذا والله أسدى أجره للمحسنين
غير الخليفة في الوزى سلطاننا من آل عثمان أمير المؤمنين

ويصور أحمد نسيم فرحة الإسلام بالسلطان عبد الحميد وما حقق الله على يديه من نصر وعز للمسلمين فيقول : ^(٧)

وقد أعدت إلى الإسلام نصرته حتى ارتدى روضة باليانع الخضل ^(٨)

(١) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث : ص ٢٢٤ .

(٢) ديوان سليمان الباروني : ص ١٧ . حيث يقول : « اتهمتنى حكومتنا السنية سنة ١٣١٦ هـ وأنا قادم من مصر فجزائر فتونس يسوء البية نحوها لوشاية من أرباب الأغراض يعلمهم الله . والله يعلم أي برئ .. » .

(٣) المصدر السابق : ص ١١ - ١٣ .

(٤) البليد : من حرم الذكاء والمضاء في الأمور .

(٥) ديوان سليمان الباروني : ص ٢٣ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧٢ - ٧٣ .

(٧) ديوان أحمد نسيم : جزء ١ . ص ١٣٩ .

(٨) اليانع : الثمر الناضج . خضيل خضلاً : ندي وابتل .

وبت ترعى الرعايسا في مراقدها وصرت تحمي ذمار الفازع الوجل^(١)
فلا برحت لهذا الدين تكلؤه حتى يعود إلى أيامه الأول

ويهنئ عبد المطلب السلطان بعيد الدستور . ويشيد بالخلافة التي حفظت وحدة المسلمين
فيقول : (٢)

يا عيد حي وأنت خير نهار عبد الحميد بدولة الأحرار
ملك أقام على الخلافة منهم حرصاً وقاهها صولة الأشرار
من بعد ما كاد الزمان يُحلّها بالجور دار مذلة وجوار

وتناول أحمد الكاشف حالة الإسلام حين تولى عبد الحميد الحكم . وفرحة المسلمين
به ، ورهبة الأعداء منه فقال : (٣)

إمام الهدى عبد الحميد خليفة الـ نبي الذي قام في الأرض يدبر
تملك والإسلام بين عاداته تُسقّه من أحكامه وتحقّر^(٤)
فطارت قلوب المسلمين مسرة وخاف الأعادي بطشه فتطيروا

ثم أورد الشاعر طرفاً من أعمال عبد الحميد التي عادت على المسلمين بالخير فقال :
وقربت ما بين البلاد من الهدى وناولتها ما باعها عنه تقصر
وألفت أشتات القلوب على الهدى فأصبح يخشاه الضلال المنفر

ثم أسبغ على عبد الحميد كثيراً من المآثر . فهو الذي أعز المسلمين من ذل . وآمنهم
من خوف وأنقذهم من شر فقال :

أيأ منهض الإسلام من شر عثرة بها كم رأينا الحق في الأرض يعثر
ويا ناصر الأوطان بعد انكسارها وظن بني الأوطان أن ليس تنصر

(١) الفازع الوجل : الخائف المدعور .

(٢) ديوان عبد المطلب : ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) ديوان أحمد الكاشف : جزء ١ . ص ١٠ - ١٣ .

(٤) يقال سقه علينا : جهل .

وهو الذي انتصر به الإسلام وتاه وافتخر . وهو الذي اندحر به الشرك وذل وتقهقر : (١)
يا ناصر الإسلام إن زماننا بك صار في عزٍّ وفي استكبار
ومعز كل مسلم لك خاضع ومذل كل معاند جبار

ثم بين عمق تأثيره بالإسلام وخدمته له فهو يغزو ويجاهد لأجل دين الله ونصرته . لا
للتسلط والظلم والكسب فقال : (٢)

وما غضبت لغير الله منتقماً وما قهرت سوى القوم الألى حقدوا
وما فتحت لغير الدين مملكة رأيتها عن سبيل الخير تبتعد
أنهضته مسترداً فيه قوته فقام يمتد في الدنيا ويطرد

ولذلك فإن الله يؤيد جيوشه بالنصر ويمدها بالملائكة . ولا غرو فهي جيوش عدتها
الإيمان وسلاحها التقوى :

لك الجيوش التي كم فرجت كرباً كأنها قسطل في الجو منعقد (٣)
يسدد الله مرماتها يؤيدها من الملائك في غاراتها مدد
لها على الموثق الديني متكل يوم الكفاح ومن أيمانها عدد

ويدعو أحمد محرم العرب والترك إلى تقوية روابطهم في ظل راية الخلافة . ونبذ الفتنة .
وحماية الإسلام فيقول : (٤)

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأي شعب يساوي الترك والعربا
سوسوا الخلافة بالشورى ولا تدعوا لفتنة في نواحي الملك مضطربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهب

(١) ديوان أحمد الكاشف : جزء ١ . ص ٨ .

(٢) المصدر السابق : جزء ١ . ص ١٥ .

(٣) القسطل : الغبار .

(٤) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٤ .

وهو يعتز بالخلافة . ويفخر بالعثمانيين ولاة أمورها . وحماة ثغورها فيقول : (١)

لولا بنو عثمان والسنن الذي	شرعوا لما وضح السبيل الأقوم
سطعوا بآفاق الخلافة فأنجلى	عنها من الحدثان ليل مظلم
فهم ولاة أمورها وكفاتها	وهم حماة ثغورها وهم هم
تعتز أنا بالسلام وتارة	بالحرب يزخر في نواحيها الدّم
فبتلك يكفى الملك ذا شحنائه	ويصان من كيد الخطوب ويعصم

ثم يضم نفسه إليهم ويرى أنه واحد منهم فيقول : (٢)

إنا بنو عثمان أعلام السورى	والأرض تشرف فوقها الأعلام
إنا السنام إذا الأنام تفاعرت	والناس فيهم منسّم وسنام (٣)
إنا يسوس أمورنا وقيمها	ملك بأمر إلهه قَبْوَام

والشاعر يدافع عن بني عثمان ويرد على عاذليهم : (٤)

عذلت بني عثمان والعذل يؤلم	وملت عن المدح الذي كنت تنظم
حنانك بالقوم الألى أنت منهم	ورأيك في القوم الذين هم هم
أعيزك من قول الوشاة تغبرت	خلائقه واعوجّ منه المقوم

ويشيد بانتصارات السلطان عبد الحميد . فقد حمى لواء الإسلام وصان دمار الحق

فيقول : (٥)

حميت لواء الملك . فارتد طالبه	وصنت دمار الحق . فاعتز جانبه
وأدركت نصراً مارمت ساحة الوغى	بأمواجها حتى رمتها غواربه
إذا النصر عادى في الوغى جند مدبر	فجندك مولاه . وسيفك صاحبه

(١) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق : جزء ١ . ص ٢٣ .

(٣) المنسّم : خف البعير .

(٤) ديوان أحمد محرم : جزء ١ . ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٥) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .

وهيات أن يطمع ببلاد المسلمين طامع . وللخليفة من أحفاد خالد جنود يجيبون دعوته
إلى الجهاد كلما دعاهم :

أفي معقل الإسلام تطمع أمة تبيت منايها حيارى تراقبه ؟
إذا لمحت إيماء منه أجلبت على القوم حتى يسأم الشر جالبه
كثائب من أقوامنا (خالدية) وما الحرب إلا (خالد) وكثائبه

وقد انطلقت جيوش الخليفة تصونها الرعاية الإلهية . وترفرف عليها رايات النصر :
مشت تأخذ الأعداء . والله قائم عليها . ودين الله يعتز غالبه
إذا لمست حصناً هوت شرفاته وإن لمحت طوداً تداعت مناكبه

ثم حيا الشاعر سيوف بني عثمان التي ورثوها عن سيف الله خالد . وعم الرسول حمزة
فقال :

لنا من (بني عثمان) سيف إذا انتمى تسامت به أعراقه ومناسبه
لحمزة) حد منه غير مكذب وحد (لسيف الله) شتى مناقبه
إذا ما دعا الشم الأباة لغسارة دعا (البيت) فيه واستجابت (أخاشبه)

والشاعر لا يمدح العثمانيين رغماً أو رهباً وإنما يقضى بهذا المدح واجباً دينياً فرضه الله
عليه فيقول :

قضيت لهم في الله واجب حقهم وكيف بحق الله إن ضاع واجبه ؟

ثم يبين الشاعر الأسباب التي دفعته إلى مديح عبد الحميد فهو الذي حمى حمى
الإسلام . وصان ذمار الدين : (١)

حمى بيضة الإسلام عن يد لاس فأصبح من كيد العدا وهو سالم
وصان ذمار الدين والدين حوله أيا من من أعدائه وأشائم
هو الذائد الأعداء عن حوض مجده بصارم عزم لا يحاكيه صارم

(١) ديوان أحمد محرم : (مخطوط) .

وهو الذي أعاد للملك المسلمين ما ذهبت به الأيام . وصانه كما يصون الأسد عرينه :
 عبد الحميد أتاح في أيامه للملك ما ذهبت به الأيام
 لولا حزامته وشدة بأسه ومضاؤه لتضعض الإسلام
 ما زال يحمي حوضه مذ جاءه وكذلك يحمي غيلسه الضربام

وهو الذي شد من أزر الخلافة حتى هابتها ضمائر الأعداء :
 منع الخلافة أن تنال صروحها حتى تحامت سُوحها الأوهام^(١)

ولولا عبد الحميد ما طابت الخلافة نفساً ولا قرّت عيناً :^(٢)
 هذي الخلافة طابت نفسها وغدت فرحى ولولاك لم تفرح ولم تطب

وكان الشاعر يرى أن الخلافة مصدر العز للمسلمين . ويعتقد أن الدفاع عنها والدود عن حماها واجب . ويفخر بموقفه وموقف عشيرته من الخلافة فيقول :^(٣)

ونرفع للخلافة جانبها وندعمها إذا مال البناء
 نصون ذمارها بالباس . إنا « وآل محمد » فيها سواء
 ورثناها فما غفت المواضي وإن خان الحماة الأوفياء
 حماة الملك والإسلام فينا وجند الله منا واللواء
 ينازعنا حمى عثمان قوم هم المكروه والداء العياء
 ولو ملكوا الخلافة لاستبيحت محارمها وأعوزها الوفاء
 وبيع المسلمون بكل أرض كما بيع العبيد أو الإماء

ولقد كان أحمد محرم صادقاً مخلصاً في دفاعه عن العثمانيين وحيه للخليفة . ولم يكن متزلفاً يطمع في عطائهم . وإنما كان رجلاً عصامياً يرى الخلافة رمزاً للوحدة الإسلامية .

(١) السُّوحُ : جمع ساحة . وهي المكان الواسع .

(٢) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٤٢ .

(٣) انصدر السابق : جزء ٢ . ص ٢١٣ .

ويرى الخليفة موثلاً للمسلمين . فهو الذي صان شملهم من أن يتفرق وحفظ دينهم من أن يتمزق . ولما عزل السلطان عبد الحميد . وأفل نجمه ظل الشاعر على وفائه له . فنظم فيه قصيدة قال فيها : (١)

ثوى عائر الآمال يؤنسه الأسى	وتوحشه أوطاره ومآربه
كأن جلال الملك لم يبد حوله	مهيأ ولم تضرب عليه مضاربه
كأن السرايا والفيالق لم تسر	إلى الموت تنفي دونه من يحاربه
كأن رءوس الصيد لم تك خشعاً	لدى بابه المرجو بالأمس حاجبه
كأن بغاة الجود والمجد لم تفد	عليه ولم تهطل عليهم مواهبه
كأن بغاة الشعر لم تغش بابيه	بمستعليات تزدهيها مناقبه

ثم هاجم الشاعر المتزلفين المنافقين الذين أطروا عبد الحميد يوم كان خليفة . وعابوه وذموه حين نحي عن الخلافة فقال :

كأن الألى زانوا المنابر باسمه	أحلوا بدين الله ما لا يناسبه
طووا ذكره واستودعوا الله عهده	وكل امرئ رهن بما هو كاسبه

ثم قرع الشعراء الذين يمدحون ذوي السلطان وهم على عروشهم ثم يذمونهم إذا زالوا عنها فقال :

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا	عليه وإن كانت قليلاً معاييه
ألم يك ظل الله بالأمس بيننا	نلوذ به والخطب ضنك مذهب (٢)
أنظريه قهّاراً ونؤذيه مرهقاً	كفى الليث شراً أن تُقل مخالفه

ولقد أشفق الشاعر على السلطان المخلوع عن عرشه ودافع عنه فقال :

ألا راحم ؟ هل من شفيع أما كفى ؟	أكل بني الدنيا عدو بغاضبه ؟
أكان يريد السوء بالملك ؟ أم يرى	مسرته في أن ترن نوادبه ؟

(١) ديوان أحمد محرم : جزء ٢ . ص ٨ .

(٢) ظل الله على الأرض : هو لقب الخليفة التركي .

أكل مآتيه ذنوب ؟ أكله
أكل ذوي التيجان بالعدل قائم ؟
عيوب ؟ ألا من منصف إذ نحاسبه ؟
أما فيهم من لا تُعد مثالبه ؟

ثم ألقى على عاتق بطانته ما وقع في حكمه من هفوات فقال :
أليس الألى غشوه أجدر بالأذى ؟ وأولى الورى بالشر من هو جالبه

وللشاعر الأحسائي عبد العزيز العليجي قصيدة مدح فيها السيد طالب أمير الأحساء وأحد
رجال الدولة العثمانية البارزين . ولم يفته مدح السلطان عبد الحميد فأشاد به ونوه بعساكره
فقال : (١)

إمام الهدى عبد الحميد الذي به
خليفة دين الله أيان يَمَمْت
وَصَوَلَتْهُ الْكُفَّارُ بَادَتْ جُنُودُهَا
عساكره بالله تعلقو حدودها
إماماً يُوالي أمةً أحمديّة
ظلالاً تقيها أو غيائاً يجودها

وشارك الشاعر العراقي جعفر كمال الدين الحلي غيره من الشعراء فمدح السلطان عبد
الحميد حامياً حمى المسلمين ومذلل الشرك والمشركين فقال : (٢)

حفظ المهيمن حافظ الإسلام
هدمت حصون المشركين ببطشه
وأعز جانبه مدى الأيام
وأبىد أهل عبادة الأصنام
مولى حمى دين النبي محمد
بالماضيين السيف والأقلام

ولذا فحري بأهل النجف أن يخلصوا له ويدعو له :
إنا بنو النجف المشرف لم نزل
لولا أمير المؤمنين وسيفه
لملكنا ندعو مدى الأعوام
فالدين مثل وساوس الأحلام

أما الشاعر أحمد عزة الفارقي فيفدي السلطان عبد الحميد بنفسه حيث يقول : (٣)

(١) شعراء هجر : ص ٤٤٥ .

(٢) شعراء الحلة : جزء ١ - ص ٢٤٠ .

(٣) الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر : ص ٤٢ .

أمير المؤمنين فدتك نفسي وروح العالمين لك الفساد
لأنت حياتنا وعماد دين وروح العالمين لك الفداء
وأنت خليفة الرحمن فينا تدبرنا كما شاء القضاء

فهو الذي نشر العدل بين الناس . وطوى الظلم . وقضى على الباطل . وساوى بين الرعية في عدله . فحاكى الخلفاء السابقين بسيرته :

نشرت عدالة . وطويت ظلماً فهذا النشر فيه الانطواء
محوت بنور عدلك كل ظلم ودهم الظلم يمحوها الضياء
جعلت الحق منهاجاً سوياً ففيه الناس كلهم سواء
فهذا منهج الخلفاء قدماً تسير به الرعيّة والرعاء

ثم إن الشعراء هاجموا الولاة العابثين بالأمن . ومن أولئك شريف مكة (عون الرقيق بن محمد بن عون) فقد هاجمه شوقي ونظم قصيدته التي أطلق عليها (ضجيج الحجيج) ورفعها إلى السلطان عبد الحميد وشكا فيها اضطراب الأمن في الحجاز وندب حالة الحجاج هناك فقال : (١)

ضج الحجاز وضج البيت والحرم واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها للشریف عليها أم لك العلم
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا إن أنت لم تنتقم فالله منتقم

ثم طلب من الخليفة أن يؤدبه لأنه فاسق لا حرمة له فقال :

أدبه أدب أمير المؤمنين فما في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما بين البغاة وبين المصطفى رحم

ومن الشعراء الذين هاجموا هذا الشريف حافظ إبراهيم حيث قال : (١)
 ما للشريف المنتمي حسباً إلى خير البرية من بني عدنان (٢)
 أمسى يُمالئه وينصر غيّه وضلاله بحثالة العربان (٣)

ثم أقسم الشاعر بأن أمير المؤمنين لن يعجز عن رمي كيده في نحره فقال :
 تالله لو جندتما رمل النقا ونزلتما بمواطن العقبان (٤)
 وغرستما أرض الحجاز أسنة وأسلتما بحرأ من النيران (٥)
 وأقمتما فيها المعقل منعة من أرض نجد إلى خليج عمان (٦)
 لدهاكما ورماكما وذراكما ماحي الحصون وماسح البلدان (٧)
 إن تأتيا طوعاً وإلا فأتيا كرهاً بلا حول ولا سلطان

هذا وخلاصة القول إن أولئك الشعراء الذين أَلَمْنَا بهم كانوا - على الرغم من اختلاف
 بيئاتهم وتنوع شخصياتهم - يشيدون بصفة من صفات الخليفة أو موقف من مواقفه ، أو خصلة
 من خصاله . ويدافعون عنه . ويهاجمون الخارجين عليه . وقد كان يدفعهم إلى ذلك تعلقهم
 بالوحدة الإسلامية وحرصهم على جمع كلمة المسلمين تحت لواء واحد .

(١) ديوان حافظ إبراهيم : جزء ١ . ص ٤٩ .

(٢) المنتمي : المنتسب .

(٣) مآلئه : يشابعه . والحثالة : سفلة الناس .

(٤) الضمير في (جندتما) يعود إلى والي الحجاز وشريف مكة . والنقا : القطعة العظيمة من الرمل تنقاد محدودة . شبه بها
 الجنود في كثرة العدد . ويقصد (بمواطن العقبان) : رؤوس الجبال . والعقبان : نوع من الطيور الجارحة .

(٥) لأسنة : الرماح .

(٦) المعقل : الحصون . واحدها معقل .

(٧) ذراكما : فرقكما من ذرت الريح التراب في الهواء تذروه ذرواً وتذريه ذرياً . إذا فرقته وأطارته . والمقصود (بماحي
 لحصون) السلطان .